

العمل الحركي ... اجتهادات وآفات

مساهمة في نقد الإسلام السياسي فكريا
وممارسة الحركة الإسلامية الجزائرية أنموذجا

العمل الحركي... اجتهادات وآفات

مساهمة في نقد الإسلام السياسي فكريا وممارسة

الحركة الإسلامية الجزائرية أنموذجا

بقلم: السعيد معطوب (باحث جزائري)

« قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وورقني
منه رزقا حسنا، وما أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، وما
أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله،
عليه توكلت، وإليه أنيب » هود 55

قدم الفكر الحركي - وهو يرسم سبيله و يشق طريقه نحو الإصلاح والتغيير - مقارنة إصلاحية تختلف تمام الاختلاف عن كل ما عرفه الفكر الإسلامي الإصلاحي عبر مراحل التاريخ. فكل المقاربات التي سبقت زمنيا المقاربة الإصلاحية الحركية (الحركة الإسلامية) واختلفت معها مكانيا كانت مقاربات تخصصية (جزئية)، ونقصد بهذا أن هذه الأخيرة قد وجهت كل جهودها الإصلاحية وركزتها على مجال واحد من مجالات الإصلاح. أما المقاربة الإصلاحية الحركية فقد كانت على نقيضها تماما، أي أنها لم تكن مقارنة تخصصية جزئية بل كانت مقارنة عمومية كلية.

ولعل أهم ما جعل المقاربة الحركية أشمل وأكمل مقارنة إصلاحية، تبني فكرها الذي قامت عليه فهما عاما وشاملا للإسلام، الذي كان من نتائجه مقارنة شاملة لكل نواحي ومجالات الإصلاح في الأمة، إذ لم تكن مقارنة دعوية تركز كل جهودها على العمل الدعوي فقط، أو سياسية تركز جهودها على العمل السياسي فقط، أو جمعوية تركز على العمل الاجتماعي فقط، أو فكرية تركز على العمل الفكري (التعليم والتثقيف) فقط، إنما كانت مقارنة شاملة لكل ما سبق.

ولأن مقامنا هذا ليس لإحصاء و توضيح المجالات التي شملتها المقاربة الحركية (العمل الحركي)، فسنكتفي ببيان أهم المجالات التي تمثلت فيها وتمظهرت من خلالها. ذلك أننا نرى أنه وبالرغم من عموم وشمول المقاربة الحركية، إلا أنها كانت تركز أو قل تتمظهر بشكل رئيسي وأساسي في مجالين اثنين، هما المجال الدعوي (العمل الدعوي الحركي) والمجال السياسي (العمل السياسي الحركي). وأما بالنسبة للمجالات للأخرى فكانت بمثابة الفروع التي تفرعت عن هذين الأصلين الدعوي والسياسي، أو باصطلاحنا " وسائل خادمة لوسائل أشرف وأسمى منها ".

وبناء على هذا سنعمل ومن خلال ما سيتقدم بتبيان وتوضيح سمات خصائص العاملين الدعوي والحركي في المقاربة الحركية.

- 1- **المجال الدعوي:** اتسم العمل الدعوي الحركي بالدعوة أساسا إلى إحياء التراث الديني عقيدة وسلوكا (فكريا وممارسة)، وظهرت هذه الدعوة على المستوى الميداني من خلال الجهود التربوية لشيخوخ ودعاة الحركة، والتي كانت تهدف أساسا إلى تربية الفرد المسلم على السبل والمسالك العملية التي تقربه من ربه، وعلى المعاني و القيم الأخلاقية التي تقربه من أخيه.
- 2- **المجال السياسي:** تمثل العمل السياسي الحركي بالدعوة أساسا إلى التخلص من كل آثار التخلف والانحطاط والتبعية للقوى الاستعمارية، والدعوة إلى إصلاح أحوال الأمة السياسية والاجتماعية، وظهرت هذه الدعوة على المستوى الميداني من خلال إقامة أحزاب سياسية ملتزمة بالقيم الأخلاقية والروحية المستمدة من تراث الأمة الديني والفكري.

إن ما بينته أعلاه، ومن خلال قولي أن المقاربة الحركية كانت أكمل وأشمل مقارنة إصلاحية، لم يأتي من فراغ، وإنما جاء من قناعة راسخة لدي. مفادها أن أحد أهم الأسباب وأبرز الفاعلين في **اليقظة الدينية** عموما والعقدية خصوصا التي عاشتها الأمة الإسلامية خلال العقود الماضية، ولا زالت تستنير بنورها إلى غاية اليوم هي هذه المقاربة الإصلاحية أي الحركية (الحركة الإسلامية)، وهذه القناعة هي الأخرى لم تبين على أساس هش، بل بنيت على تأكيد التام من أنه لا يمكن لأحد، حركيا كان أم لا، أو قل مسلما كان أم لا (عاقل طبعاً)¹ أن ينفي دور الحركة الإسلامية في إحياء الفكر الديني الإصلاحي، والذي تمثل أساسا في إحياء العمل الدعوي بشقيه الفردي والجماعي، القائم على الممارسة التربوية الحية والميدانية، وإحياء العمل السياسي الأخلاقي، القائم على القيم الأخلاقية والمعاني الروحية.

إلا أن قولي هذا، والذي يحمل بين ثناياه كثيرا من معاني الاعتزاز والافتخار بانجازات و مكاسب العمل الحركي، يحمل في الوقت نفسه كثيرا من معاني الحسرة والأسى على المآل الذي آل إليه العمل الحركي، وعلى الحالة التي هو عليها اليوم. وبناء على هذا جاءت مساهمتي النقدية هذه، والتي أعتبرها حلقة من حلقات النقد (المراجعات) التي يقوم بها كثير من المثقفين والمفكرين من داخل الفكر الحركي أو خارجه على امتداد أقطار العالم العربي الإسلامي. و ستتعلم هذه المساهمة أساسا باجتهادات الحركة الإسلامية الجزائرية والآفات التي طرأت عليها سواء في جانبها الفكري أو العملي.

1 لا نعني هنا مجرد امتلاك ملكة العقل، أي القدرة على تعقل الأشياء، بل نعني به امتلاك القدرة على النظر في الأشياء، والقدرة على تمييز الدليل من المغالطة، والحقيقة من الوهم.

وفي ختام تقديمي هذا أقول أن هديني الأساس والرئيس من هذا العمل البسيط هو ليس فقط المساهمة في النقد، بل هو المساهمة في عملية التأسيس لفكر إصلاحى جديد يستفيد من أخطاء الماضي (أخطاء كل الأفكار الإصلاحية السابقة) و يستوعب متطلبات الحاضر ويستشرف آفاق المستقبل، فكرا ينفذ الغبار عن الحركة الإصلاحية (العقدية والفكرية) ويدفعها إلى مراكز الريادة والتفوق من جديد، أو قل فكرا يساهم مساهمة حقيقية في دفع الأمة الإسلامية والعربية على ارتياد آفاق النهوض الحضاري من جديد.

أولاً: آفة التقليد

((إن أفهام الرجال ليست وحياء، والمدارس
الفقهية أو الحركية ليست الإسلام، وان كانت
تنسب إليه وترجع إليه)) سلمان العودة.

ونقصد بالتقليد إجمالاً: " العمل بقول الغير أو إتباع الغير في عمله من غير طلب أو تحصيل
دليل نظري أو عملي يثبت صحة هذا القول أو العمل ".

والناظر في هذا التعريف يلاحظ أننا لا نقصد بالتقليد العمل والأخذ بأقوال الغير (فكرة، فتوى،
... الخ) دون تحصيل الأدلة النظرية التي استند عليها في أقواله، والتحقيق في مدى حجيتها من عدمه
وفقط، إنما نقصد به أيضاً العمل والأخذ بأعمال الغير (سلوك، وسيلة، ... الخ) دون تحصيل الأدلة
النظرية والعملية التي استند عليها في عمله، والتحقيق في مدى حجيتها من عدمه.

قبل بسط الكلام في هذه الآفة، وجب التنبيه أن الفكر الحركي ليس وحده من اختص بهذه الآفة،
أي أن آفة التقليد لم تطرأ على الفكر الحركي وحده، إنما هي آفة طرأت على الفكر الإسلامي
المعاصر ككل. فمن المعلوم أن أهم أسباب التخلف الحضاري الذي لا يزال نقب تحت وطأته إلى
اليوم هو الجمود الفكري الذي أصاب العقل الإسلامي، والذي بسببه انخفض وبشكل مريب منسوب
النشاط العقلي (الفكري والفلسفي)²، وارتفع وبشكل مرعب منسوب النشاط النقلي³ (التقليد).
الأمر الذي جعل أبواب الاجتهاد والإبداع توصل نهائياً في وجه كل من يروم التحديث والنهوض.

والكلام حقيقة في آفة الجمود التي أصابت العقل الإسلامي، هو كلام طويل عريض، قد لا يكفي
الكتاب الواحد أو بالأحرى العشرات لبسط الكلام فيه. ولأن مقامنا هو فقط مقام نقد لما يمكن أن
نصطلح عليه **العقل الحركي** في تمظهره العملي، وليس مقام نقد للعقل الإسلامي ككل، فإننا سنكتفي
بما قلناه، و نترك الخوض في مسألة جمود العقل الإسلامي إلى إسهامات أخرى إن شاء الله.

2 أريد أن أنبه القارئ الكريم أن قصدنا بالنشاط العقلي، هو ذلك النشاط الذي يستهدف إبداع وإنتاج معارف جديدة سواء عن طريق النظر في
النصوص المقدسة (القرآن والأحاديث النبوية) كالفقه، أصول الفقه، مقاصد الشريعة، أو النظر في النصوص البشرية (التراث الفكري الإنساني)
كالمنطق و الفلسفة.

3 النشاط النقلي: لا نقصد به الاهتمام بالعلوم النقلية أو إعطائها أولوية على العلوم العقلية، إنما نقصد به ذلك النشاط الذي يستهدف إعادة وتكرار
ما قاله وأنتجه السلف في الفترات الماضية (الإنتاج العقلي طبعاً)، وإعطائه أولوية على كل قول أو إنتاج معاصر.

إن الحديث عن الآفات التي طرأت على العمل الحركي، يستدعي حوضاً في محصلاتها، أي في النتائج التي حصلها العمل الحركي بعد أن طرأت عليه هذه الآفات، وهذا ما سننعمده كمنهجية أساسية في توضيح آفة التقليد و الآفات الأخرى اللاحقة. وبما أن التقليد - كما بينا في التعريف - قولي وعملي، كان لزوماً أن تكون النتائج التي حصلها العمل الحركي بعد أن طرأت عليه آفة التقليد هي الأخرى قوليه (فكرية) وعملية.

وقد اجتهدنا في البحث والتنقيب عن أهم هذه النتائج، لننجح أخيراً في تحصيل ثلاث، اثنين منها قولية (فكرية) وواحدة منها عملية، فأما أولى النتائج القولية فهي ذات ارتباط مباشر بفكر المؤسس أو الفكر الحركي التأسيسي ، وأما ثانيها فهي ذات ارتباط مباشر بالعقل الجمعي الحركي، وأما النتيجة العملية الوحيدة فهي ذات ارتباط بالممارسات والوسائل الحركية المختلفة الداخلة أو السائرة في حلقة الديناميكية الدائمة. وقد اصطَلحنا على الأولى " تقديس الفكر التأسيسي "، وعلى الثانية "تكلس العقل الجمعي"، وعلى الثالثة " تجمد الإبداع العملي".

1.1. تقديس الفكر التأسيسي:

نعرف أن القارئ الكريم و بمجرد قراءته لهذا العنوان سيذهب مباشرة إلى الإقرار بأن قصدنا من الكلام على الفكر التأسيسي هو الكلام على المنظر والمؤسس الأول للعمل الحركي المصلح المصري الكبير حسن البناء، ولتجنب هذه القراءة الجزئية حتى لا نقول الخاطئة، سنأتي بتبيان قصدنا بالفكر التأسيسي الذي لا يتمثل في فكر الإمام حسن البناء فقط والمدون أساساً في رسائله، إنما قصدنا أيضاً كل تلك الشروح والقراءات لرسائله، بالإضافة إلى أفكار كل من يعتبر لدى أصحاب الفكر الحركي قامة فكرية حركية وإسلامية⁴.

ومن الواجب أن نوضح أيضاً أن الكلام على تقديس فكر أو شخص يعني الكلام على التعصب لذلك الفكر أو الشخص، ومعروف أن التعصب يقوم على اعتقاد أن الفكر المتعصب له يمثل وحده الحقيقة المطلقة، وأن الشخص المتعصب له يمثل وحده من قبض على هذه الحقيقة. والتعصب أو بالأحرى التقديس يعني الالتزام التام والمطلق بفكر وآراء المتعصب إليه (شخص أو جماعة) أو بفكر وآراء الفترة المتعصب لها (مرحلة تاريخية).

4 نذكر من هؤلاء على سبيل الذكر لا الحصر ولا الترتيب، الإمام محمد الغزالي (مصر)، الشيخ يوسف القرضاوي (مصر)، الدكتور فتحي يكن (لبنان)، الدكتور مصطفى السباعي (سوريا)، الدكتور محمد أحمد الراشد (العراق)، الشيخ راشد الغنوشي (تونس)، الشيخ محفوظ نحاح (الجزائر)، الدكتور عصام البشير (السودان).

و إنه وبفعل المنهجية التربوية الصارمة التي كانت ولا زالت معتمدة بشكل شبه رسمي في المؤسسات الحركية باختلاف هوياتها وأشكالها وأهدافها، والتي كانت حريصة على بعث أفرادها للالتزام الكامل بالمقاربة الحركية الإصلاحية فكرا وسلوكا وأهدافا و وسائلًا، وبذلك انتشر سرطان التعصب ومنه التقديس لفكر ومرحلة ورجال التأسيس بين قيادات وأبناء العمل الحركي من دون أدنى إحساس أو وعي منهم. والذي به ومن خلاله تحولت المرحلة التأسيسية للعمل الحركي من مجرد مرحلة انطلاق وانبعث إلى مرحلة مقدسة لها مكانتها ومنزلتها الخاصة في قلب كل حركي، كما تحول الفكر التأسيسي من مجرد فكر بناء وتأسيس إلى فكر مقدس له حضوره وسره الخاص في عقل كل حركي، ويتحول أيضا رجال تلك المرحلة من مجرد رجال دعوة وإصلاح إلى رجال مقدسين لهم حضورهم وتأثيرهم الخاص في نفس كل حركي.

ومن نتائج هذا التقديس لمرحلة وفكر ورجال التأسيس أن أضحي المخيال الجمعي الحركي يعتبر **المنتج الفكري الحركي**⁵ هو المنتج الوحيد والأوحد الذي يمكن أن يوصف بالعلمية والموضوعية وبالتالي بالصحة و الصواب، وأما المنتجات الفكرية الأخرى (وعلى قلتها) فهي مجرد أوهام وهرطقات لا تسمن ولا تغني من جوع، كما جعلته - المخيال الجمعي الحركي - يعتبر أن علماء ومفكري العمل الحركي هم وحدهم رجال علم وفكر، و بالتالي هم وحدهم من يمتلكون أو على الأقل لهم القدرة على الوصول إلى الحقيقة المطلقة وأن كل اجتهاداتهم هي من القطعي الذي لا جدال ولا مرأى فيه، أما غيرهم من العلماء والمفكرين فهم إما علماء بلاط أو مجرد متنطعين و سفسطائيين تشبعوا بفكر غربي ملحد، وبالتالي فكل اجتهاداتهم وأفكارهم هي من قبيل المرفوض مطلقا.

كما أن هذا التقديس جر الكثير من المنتسبين للعمل الحركي (قيادة وجندية) إلى تحريم وتحريم كل محاولات نقد ومراجعة الفكر التأسيسي، فهو حسب هؤلاء من القطعيات (الأصول) الحركية وبتعبير أدق الإسلامية، وهذا يعني أن مجرد التفكير في نقدها أو محاولة مراجعتها وتحديثها هو تشكيك صريح فيها. والتشكيك الصريح في الأصول يعني إعلان الخروج عن الدائرة الحركية إن لم نقل الإسلامية. وقد شكل هذا الاعتقاد الفاسد مقصلة حقيقة لكثير من رجال العلم والفكر الحركيين، كما شكل أيضا أحد أهم أسباب الانقسامات التي عرفها العمل الحركي بتمظهراته وعبر مراحلها المختلفة.

2.1. تكلس العقل الجمعي

قلنا فيما سبق أن قيادات العمل الحركي وبهدف تثبيت أفكار مقاربتهم الإصلاحية في نفوس وعقول الجماهير المؤيدة قد اعتمدوا على العملية التربوية (سلوكية وفكرية) كعملية أساسية ورئيسية لتحصيل ذلك. كما قلنا أن

5 كتابات واجتهادات علماء وقادة العمل الحركي.

هذه الأخيرة قد كانت ولا زالت تتميز بصرامة خاصة، وان هذه الصرامة هي التي مكنت سرطان التعصب من الولوج والانتشار في الأوساط الحركية.

إن التعصب كما بينا آنفا يدفع بالمتعصب إلى اعتقاد أن من يتعصب له أو لهم هم وحدهم من يقبضون على الحقيقة النهائية والمطلقة، وهذا الاعتقاد في الحقيقة هو ما يدفع بمعتنقه إلى الإصابة بداء التكلس العقلي أو الفكري، فاعتقاد أن فردا أو مجموعة ما هي وحدها التي تقبض على الحقيقة المطلقة يعني أن هذا الفرد أو هذه المجموعة هي وحدها من تملك حق إدارة العقل الجمعي (الإسلامي وليس الحركي فقط)، أي أنها هي وحدها من تملك حق إنتاج الأفكار وصك المفاهيم، ومنه حق النشر و المقروئية والتأثير.

وإنه ومتى ثبت عندنا أن جل المنتسبين للعمل الحركي قيادة وجندية راسخ عندهم هذا الاعتقاد أي اعتقاد أن جماعتهم هي من تقبض على الحقيقة المطلقة - وهو ما أثبتناه سابقا - ثبت عندنا أيضا أن هؤلاء يؤمنون إيمانا مطلقا أن منتجات علمائهم ومفكرهم أو ما نصحوا به من المنتجات التراثية (منتجات السلف) هي وحدها التي تستحق النشر والقراءة، وبالتالي هي الأصلح لبناء الفكر وتشكيل الثقافة. وثبت لدينا أيضا أن التكلس العقلي أو الفكري ما هو إلا قولبة للعقل أو الفكر، فكان بمثابة فرض حدود أو آليات أو قوالب خاصة على العقل لا يمكنه بأي حال من الأحوال تجاوزها أو العمل بغيرها أو التشكل بخلافها، ومن الثابت كذلك اقتصار واكتفاء المنتسبين للعمل الحركي في بنائهم الفكري وتشكيلهم الثقافي على المنتج الفكري الحركي وما دل عليه هذا المنتج دون غيره هو تكلس للعقل الجمعي الحركي.

وتكلس العقل الجمعي الحركي هو من أعظم المصائب وأخطر النتائج التي حصلها العمل الحركي بعد أن طرأت عليه آفة التقليد، ذلك أن العقل الجمعي الحركي أصبح منغلقا على ذاته (الانغلاقية الفكرية). ما جعل العقل يصاب بالكسل الفكري، أي أن الإنتاج الفكري قلّ إن لم نقل جفت منابعه (العلماء والمفكرين)، وأن هذا الإنتاج وعلى قلته لم يعد فيه من الإبداع (التنوع والجدّة وقوة الطرح) ما يقنع العقول ويمتّع النفوس.

3.1. تجمد الإبداع العملي:

من المعلوم عند الخاص كما العام، أن لكل دعوة إصلاحية كانت أو ثورية فكرها الخاص الذي تقوم وتستند عليه، ووسائلها الخاصة التي تعتمدها كأساس لنقل فكرها من عالم التجريد والتنظير إلى عالم التفعيل والتطبيق، و أن تناسب و تجانس وسائل هذه الدعوة وفكرها أمر لا جدال ولا نقاش في

ضرورته ولزومه. ذلك أن غياب التناسب بين وسائل وفكر أي دعوة يعني بالضرورة فشلها في تحقيق أهدافها وغاياتها المرجوة.

ومن المعلوم أيضاً أن لكل مرحلة تاريخية فكرها الخاص، وأن الفكر المنتج أو المولد خلال مرحلة تاريخية معينة لا يصلح إلا لإنتاج أو تحصيل متطلبات (الأشياء باصطلاح مالك ابن نبي) تلك المرحلة. فالفكر الإنساني في عمومه ذو طبيعة ديناميكية فهو دائم الحركة والتغير، أي أنه غير قابل للتثبيت.

و بناء على ما سبق أي القول بضرورة التناسب بين الفكر والوسائل، والقول بمرحلة وديناميكية الفكر، يكون من اللزوم القول بمرحلة وديناميكية الوسائل. فمثلما لكل مرحلة تاريخية معينة فكرها الخاص لها أيضاً وسائلها الخاصة التي تتناسب وهذا الفكر.

كنا قد اشرنا في النتيجة الأولى التي حصلها العمل الحركي بعد أن طرأت عليه آفة التقليد إلى أن تقديس الفكر التأسيسي ما هو إلا تقديس للمرحلة التاريخية التي أنتج فيها ذلك الفكر، وأن تقديس المرحلة التاريخية يعني بالضرورة تقديس فكر ووسائل ورجال تلك المرحلة. فبالاستناد إلى هذا وإلى ما قلناه فيما سبق من مقدمات يصبح من الثابت لدينا أن العمل الحركي ممثلاً في قياداته وجماهيره العاملة والمؤيدة قد حصل نتيجة ثلاثة تماثل في خطورتها ومضمونها تقديس الفكر التأسيسي وفي شكلها وتمظهرها تكلس العقل الجمعي، وهي ما اصطلحنا عليه بتجمد الإبداع العملي.

كما نضيف إلى كل الذي قلناه، أنه ومتى تم التسليم بتجمد الإبداع الفكري لحضارة أو أمة أو جماعة بفعل تقديس فكر مرحلة من مراحل بناء وتأسيس هذه الحضارة أو الجماعة، فإنه يكون من الضروري جداً التسليم بتجمد الإبداع العملي لحضارة أو جماعة بفعل تقديس وسائل مرحلة من مراحل بناء وتأسيس هذه الحضارة أو الجماعة.

وبهذا نكون قد أنهينا كلامنا تبياناً وشرحاً في الآفة الأولى من الآفات التي طرأت على العمل الحركي، والنتائج المحصلة بعد أن طرأت عليه، و إن طرحنا حديثنا إجمالاً فسنؤكد أن آفة التقليد ما هي إلا ترجمة وإعادة تخريج لآفة قديمة قدم الفكر الإنساني ألا وهي آفة التعصب، والتعصب يعني في كثير من الأحوال والظروف التقديس، والتقديس يعني بالضرورة التجمد والتكلس و فناء روح الإبداع والتجديد.

ثانياً: آفة التسييس

((هل أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام؟؟
قالوا بلى يا رسول الله؟؟ قال: إصلاح ذات البين، فإن
فساد ذات البين هي الخالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن
تحلق الدين)) حديث نبوي.

ونقصد بالتسييس إجمالاً: " تغليب وتسييد العمل السياسي على النشاطات الحركية الأخرى، و تمظهر العمل الحركي بمظهر سياسي خالص " .

وواضح هنا أننا لا نقصد بالتسييس الاشتغال السياسي الذي هدفه الإصلاح والتغيير أي أفراد الجانب السياسي بالقدرة على تحقيق الأهداف الإصلاحية، إنما نقصد به استبداد التوجه السياسي في نشاطات الحركة الإسلامية، أي تغليبه وإعطائه الأولوية على كل الجوانب الحركية الأخرى.

من المعلوم أن العمل الحركي قد مر بمراحل تاريخية مختلفة، ليس هذا مقام تفصيلها، وحسبنا منها هاهنا مرحلتين أساسيتين: " مرحلة التأسيس " و " مرحلة المؤسساتية ". والمقصود بمرحلة التأسيس التي كان العمل الحركي فيها لا يزال في بداية التشكيل المؤسساتي أي قبل أن يصبح على شكل مؤسسة (بالمعنى الضيق " الإداري الصرف " للكلمة) تماثل أو تضاهي الأشكال المؤسساتية الأخرى، وقد اصطالحنا على العمل في هذه المرحلة بالعمل الحركي التأسيسي. أما المقصود بمرحلة المؤسساتية التي أصبح فيها التشكيل المؤسساتي الصرف والتفعيد التنظيمي الصارم أحد أهم سمات العمل الحركي، وقد اصطالحنا على العمل في هذه المرحلة بالعمل الحركي المؤسساتي.

وهدفنا هنا أن نتأمل في هاتين المرحلتين، لنكشف ونبين أهم النتائج التي حصلها العمل الحركي بعد أن طرأت عليه آفة التسييس.

1- العمل الحركي التأسيسي وآفة التسييس:

إن ما يمكننا قوله ونحن بصدد بيان هذه الآفة، أنها قد طرأت على الحركة الإسلامية عموماً، والجزائرية خصوصاً، وهي لا تزال تخطو خطواتها الأولى نحو الإصلاح العقدي، والتغيير السلوكي.

فالناظر بل وحتى الملاحظ لتاريخ الحركة الإسلامية الجزائرية⁶ يعلم أنها انخرطت في العمل السياسي في وقت مبكر جدا، وكانت حينئذٍ لا تزال حديثة ظهور وتأسيس، ولم تنخرط فيه باتخاذها شكلا تنظيميا سياسيا (حزب سياسي) وْحَسْب ، بل جعلته وبمجرد الانخراط فيه أولى أولوياتها، وأخطر وأقدس نشاطاتها.

كما أن الناظر في مآل الحركة الإسلامية بعد أن طرأت عليها هذه الآفة وأصابتها في مركزها الحيوي، يرى أنه لم يبق فيها إلا ما يدفع إلى نظم أشعار الرثاء والبكاء على الأطلال. ذلك أنها حينما بُلِّيت بتلك الآفة دخلت في نفق مظلم جعلها تصطدم مع الآخر من جهة (النظام الحاكم)، ومع الذات من جهة أخرى (الجماهير المساندة). وقد اصططحنا على التصادم الأول " التعادي مع الآخر"، وعلى التصادم الثاني " التصارع مع الذات ".

1.1. التعادي مع الآخر⁷

لا ريب أنّ الانخراط المبكر، والتقديس المفرط للعمل السياسي، هو الذي جلب على الحركة الإسلامية - في الجزائر خصوصا والعالم الإسلامي عموما - التضيق المنظم والتشنيق الموجه من الداخل (الأنظمة و الجماعات المناوئة) ومن الخارج (الغرب)، وبناءا عليه حُلَّت تشكياتها السياسية و حتى الجمعوية، وذبحت ونفيت واعتقلت قياداتها الفكرية والدعوية، ومنعت و أبعدت رموزها السياسية و الحزبية، و جمدت وشوهت نشاطاتها الخيرية و الإغاثية. الأمر الذي أحال رصيد جهودها لأكثر من خمسة عقود من الزمن هباءً منثوراً في مهب ريح التهور الفكري والسياسي.

و إن هذا التهور السياسي هو الذي جعل الحركة الإسلامية تدخل في عداء مستمر مع الآخر الداخلي (الأنظمة والجماعات المخالفة) والخارجي (الغرب)، و أضحى هذا الآخر داخليا وخارجيا بمثابة " العدو الصريح" لها، وأتى له غير تلك الصفة و هو في نظر الحركة الإسلامية المتسبب الأول والأخير في عرقلة مسيرتها الإصلاحية. هذا من جهة الحركة الإسلامية، أما من جهة الآخر الداخلي كما الخارجي فيرى أن الحركة الإسلامية بمثابة الخطر الدائم الداهم أو قتل العدو اللدود الذي وجب التضيق عليه بشتى الوسائل (المشروعة وغير المشروعة) إلى أن يتم استئصاله نهائيا من الوجود.

6 لا أتكلم هنا على المرحلة السرية من العمل الحركي، بل أتكلم على المرحلة العلنية، أي منذ سنة 1989.

7 نقصد بالآخر، الأنظمة الحاكمة والجماعات السياسية والدينية ذات التوجهات المخالفة لتوجهات واجتهادات الفكر الحركي وهو ما نصطلح عليه "الآخر الداخلي"، كما نقصد به الغرب كأنظمة و مجتمعات وهو ما نصطلح عليه "الآخر الخارجي"

2.1. التصارع مع الذات

إن التغليب غير المبرر للنشاط السياسي على الأنشطة الحركية الأخرى، أظهر قادة ورموز وأبناء الحركة الإسلامية في صورة غير الصورة التي كانت قواعدها الجماهيرية العريضة (والتي كانت تشكل جزءا هاما منها) قد أخذتها عنها من قبل، فالحركة الإسلامية وقبل زمن قريب من زبغ توجهاتها، كانت ذات توجه دعوي بحت. فالتوجه السياسي وإن كان يشغل حيزا هاما في فكرها باعتبارها حركة إصلاح وتغيير، ويمثل أهم المهوم التي كانت تشغل عقول القادة، إلا أنه -التوجه السياسي- لم يرق يوماً ليكون مدار فكرها، ولا محور ممارساتها (أنشطتها)، كما أنه لم يكن يوماً عندها بالخطورة التي تجعله في مصاف أولى أولوياتها وأقدس توجهاتها وأنشطتها.

والصورة التي كانت ملتصقة بأذهان الجماهير المناصرة والمؤيدة للخط الإصلاح الحركي، صورة بيضاء خالية تماما من كل النكوت التي كانت ملازمة لكل الصور الأخرى الموجودة في المخيال الجمعي للجماهير الهاتفة للتغيير. فقد قدم رجال الحركة الإسلامية أنفسهم على أنهم أصحاب "دعوة بريئة نزيهة، قد تسامت في نزاهتها حتى جاوزت المطامع الشخصية واحتقرت المنافع المادية، وخلفت ورائها الأهواء والأغراض، ومضت قدما في الطريق التي رسمها الحق تبارك وتعالى للداعين إليه"⁸ (وقد كانوا كذلك ولا نركي على الله أحدا)، إلا أنهم وبمجرد اقتحامهم المعتزك السياسي، واندماجهم التام فيه، ظهروا بعكس ما قدموا أنفسهم (ليس الكل بالطبع حتى لا نرمى بالتعميم). الأمر الذي جعل الصورة البيضاء تصبح عند جزء من المناصرين سوداء فانقلبوا على أعقابهم بعد أن خاب ظنهم في التوجه الذي عقدوا عليه كل آمالهم في الإصلاح والتغيير، وانتقلوا إلى مناصرة توجه آخر، وأصبحت الصورة عند جزء ثانٍ صورة ماثلة للصور التي كانت موجودة عنده أي صورة منكوتة، وبدا فاقداً الأمل نهائياً في التغيير، فاختر القعود والانسحاب التام، وأصبحت عند الجزء الثالث الأخير صورة رمزية يحن إلى رؤيتها من جديد. و تمثل هذه الأجزاء جمعا هائلا من المناصرين والمؤيدين الذين انفضوا من حول الحركة الإسلامية، و طلقوا خطها الإصلاح الحركي طلاقا غير رجعي. وهذا بسبب ما خلفته آفة التسييس.

بعد كل الذي استعرضناه، من المؤكد أن يعترض أحدهم مدّعا أن الحالة المأساوية التي آل إليها العمل السياسي الحركي أو بالأحرى الدعوي والفكري، لم يكن من لادن مفكري وقيادات الحركة الإسلامية أي أن السبب لم يكن داخليا بحتا وحسب - وهو آفة التسييس -، إنما كان أيضا من

8 حسن البناء، رسالة دعوتنا.

لندن **دوائر ومؤسسات النظام** التي كانت تطمح لتغييره أو على الأقل إصلاحه ، أي أن السبب كان خارجياً أيضاً (بالنسبة للحركة الإسلامية ، لا بالنسبة للمكان الذي تنشط فيه) .

و لهذا المعترض نقول أن فحوى اعتراضك هذا، والذي أردت أن تنفي به تسبب آفة التسييس - كما بينا - في ما آل إليه العمل الحركي، يحمل بين ثناياه حجة عليك لا لك، فهو اعتراض فيه إثباتٌ أنّ السبب وراء وابل المصائب التي حلت بالعمل الحركي كان **آفة التسييس**، ولا شيء غيرها. فدوائر النظام ورغم امتلاكها لعدد لا يستهان به من العارفين بشؤون وخبايا العمل الحركي، وامتلاكها لسياسات ووسائل تستطيع من خلالها القضاء على الحركة الإسلامية إن هي دخلت في مواجهة مباشرة معها، ما كانت- دوائر النظام- لتتمكن من التوغل والتمركز في هياكل ومؤسسات الحركة الإسلامية، ولا من نشر العداوة والحقد بين رجال الصف الأول والمؤيدين **لخط العمل الإسلامي** عموماً (ما نضطلع عليه بالدعوي)، والمؤيدين لخط العمل الحركي خصوصاً، لو لم تتطراً آفة التسييس عليه .

ونضيف أيضاً أنه ومتى تم التسليم بأن **آفة التسييس** هي السبب الذي مكن لتدخل دوائر النظام في شؤون الحركة الإسلامية، ونشر العداوة والبغضاء بين رجال صفها الأول وأبنائها، وتم التسليم أيضاً بأن التسييس آفة طرأت على الحركة الإسلامية **اختياراً لا اضطراراً**، أي أنها من اختارت تغليب العمل السياسي على كل النشاطات الحركية الأخرى، تم القول لزوماً، أن الفشل الذي عرفته ولا زالت تعرفه الحركة الإسلامية إلى اليوم، هو ليس من لندن أي جهة خارجية نظاماً كان أو جماعات مناوئة أو منافسة، إنما هو من **لدهنها هي**، أي من **لندن اختياراتها وتوجهاتها هي**.

إنّ كل ما ذكرناه لحد الآن هو محصلة **آفة التسييس** والحركة الإسلامية - في الجزائر- لا تزال في أيامها الأولى من التأسيس، أي أن مشوار التشكيل المؤسسي، والتفعيد التنظيمي لا يزال في بدايته. لذلك سننتقل الآن لبيان نتائج آفة التسييس بعد انتقال العمل الحركي من مرحلة التأسيس إلى مرحلة المؤسساتية.

2- العمل الحركي المؤسساتي وآفة التسييس

إن من أهم السمات التي اتسم بها العمل الحركي المؤسساتي عن التأسيسي اكتساب قياداته ورموزه الخبرة والتمرس الكافيين لضمان عدم الوقوع في أخطاء المرحلة التأسيسية، وقد ترجمت هذه الخبرة وهذا التمرس في اكتساب العمل الإصلاحي الحركي صفتين أساسيتين جعلتاها يتمايز عن كل الأعمال

الإصلاحية الأخرى الموجودة في الساحة الإسلامية، وقد اصطَلحنا على الصفة الأولى " صرامة التشكيل المؤسساتي"، و على الصفة الثانية " قداسة التقعيد التنظيمي".

ونقصد بصرامة التشكيل المؤسساتي، التطبيق الحرفي للنظريات والقواعد الإدارية الحديثة فيما يختص بتشكيل وإدارة المؤسسات، الأمر الذي جعل المؤسسات غاية في حد ذاتها بعد أن كانت تمثل في الفكر الحركي أو بالأحرى الفكر الإصلاحى ككل مجرد وسيلة. و أفضت هذه الصرامة المؤسساتية بالعمل الحركي إلى تحصيل ما اصطَلحنا عليه " التنازع على الشرعية "

كما نقصد بقداسة العمل التنظيمي، التطبيق الحرفي للنظريات والرؤى السياسية الحديثة فيما يختص بالتداول السلمى على السيادة، الأمر الذي جعل القواعد المنظمة لشأن المؤسسة الداخلى قواعد مقدسة، تماثل في قداستها القواعد الدستورية المنظمة للشأن الداخلى للدولة، أو بالأحرى القواعد الشرعية المنظمة للشؤون الخاصة والعامّة للمجتمع الإسلامى، وقد أفضت هذه القداسة التنظيمية بالعمل الحركي إلى تحصيل ما اصطَلحنا عليه " التخاصم على السيادة".

1.2. التنازع على الشرعية:

إن عملية التشكيل المؤسساتي، تفرض على كل من أراد القيام بها وعلى أصولها الإدارية الصرفة، أن يقوم ابتداءً بتحديد هوية مؤسسته، وبما أن الهدف الأول والأخير من التشكيل السياسى المؤسساتى (حزب) هو الدخول فى صراع مع الآخر من أجل الظفر بأكبر وعاء جماهيرى "عدد الأصوات"، وبالتالي الصراع من أجل الوصول إلى سدة الحكم، فإن كل مؤسسة سياسية (حزب) وإن هي أرادت تحديد هويتها فستقوم بتحديد لها على أساس يجعلها تتعارض وهوية المؤسسات السياسية المنافسة أو الداخلة معها فى دائرة التنازع السياسى.

وبناءً على هذا، وبسبب وجود خلافات فكرية بين أبرز قادة العمل الحركي فى مرحلته السرية والعلنية، بدأ التعارض فى تحديد الهوية يطفو على السطح فى بداية التوجه فى السبيل السياسى، ليصبح واقعا معاشا بعد الانخراط التام والاندماج الكلى فيه. الأمر الذى جعل الهوية الحركية تنقسم على ذاتها، و تصبح هويات حركية متعددة بعد أن كانت هوية حركية واحدة تجمع الجميع تحت لوائها.

وقد تمثل التنازع القائم بين الهويات الحركية المختلفة فى التنازع على الشرعية، أي على أحقية تمثيل الهوية الحركية الأولية (قبل الانقسام)، فكل هوية تنسب لنفسها أصالة الفكرة، وتدعى لنفسها حق التمثيل. وقد وصل هذا التنازع المقيت إلى حد التبغاض والتلاعن بين قيادات وأبناء الهويات الحركية المختلفة، بل و التناحر فى كثير من الأحيان، فبعد أن كانت المساجد صرحا يلهم شملهم،

أصبحت ميدانا تجري فيه معاركهم، وبعدها كانت المجالس الدعوية فضاء يجمع شتاتهم، أصبحت مسرحا يعلن فيه تلاعنهم وتباغضهم.

وقولنا أن التنازع الذي كان ولا يزال قائما بين الهويات الحركية المختلفة كان تنازعا على الشرعية، لا ينفى أبدا وجود تنازع سياسي بينها. فهي الأخرى وبموجب هوياتها الحركية والتي هي في الأصل سياسية⁹ كان هذا النوع من التنازع قائم بينها أيضا، أي أن كل هوية حركية أصبحت بالنسبة - لأختها- عدوة و مجرد هوية منافسة مثلها مثل الهويات السياسية الأخرى، أو بعبارة أخرى أن كل هوية حركية كانت ترى في مثيلاتها عدوا صريحا لا بد من النيل منه وبكل الوسائل المشروعة (أو حتى غير المشروعة في بعض الأحيان) من أجل الظفر بما كانت تطمح له جميع الهويات السياسية المنافسة، ووقوع الهويات الحركية (العمل الحركي بعد الانقسام) في مثل هذا التنازع الرخيص نكسة لا تماثلها نكسة، بل شر لا يماثل شر أبدا.

2.2. التخاصم على السيادة

إن عملية التععيد التنظيمي، تفرض على كل من أراد القيام بها وعلى قواعد السياسية الصرفة، أن يقوم ابتداء بتحديد العلاقات القانونية، والتي بها تتحدد العلاقة بين السيد (الرئيس) والمسود (المرؤوس)، كما تتحدد وبدقة متناهية مهام كل عنصر أو عضو في المؤسسة. وبما أن الهدف الأول والأخير من التععيد التنظيمي كان وضع آلية واضحة ودقيقة للتداول السلمي على السيادة، فقد تم وضع هذه الآلية وفق قواعد تتيح لجميع الأطراف الطامحة في السيادة فرصة للتنافس الشريف.

ولأن القلوب أو بالأحرى النفوس مجبولة على حب السيادة (الرئاسة)، ومهيأة للتخاصم على السلطة، ولأن العمل الحركي وبعد أن طرأت عليه آفة التسييس فقد نوعا ما بوصلته الروحانية، التي كانت توجه مساره وتحدد إيقاعه، فقد أصبح التخاصم على السيادة¹⁰ بين قيادات وأبناء العمل الحركي صفة ملازمة لهم. ذلك أن حب التسلسل عند قيادات وأبناء العمل الحركي¹¹ (باختلاف هوياته وتمظهراته) لم يعد مجرد شيء فطري، بل تحول إلى شبه مطلب ضروري يسعى كل واحد منه لتحقيقه بشق الوسائل (المشروعة وغير المشروعة ، وهذا جوهر آفة التسييس).

9 يجب أن لا ننسى أن تحديد الهويات الحركية، أو انقسام الهوية الحركية الأولية على نفسها جاء بعد أن طرأت آفة التسييس عليها، أي أن تحديد الهوية هو مطلب سياسي وليس حركي.

10 لا أقصد بالتخاصم على السيادة، التخاصم على المناصب السيادية في العمل الحركي فحسب، إنما أقصد به أيضا التخاصم على المناصب التمثيلية (المجالس المنتخبة).

11 ليس الكل طبعا، حتى لا نرمي بالتعميم الفاسد.

ومن نتائج هذا التخصص تحول مؤسسات العمل الحركي إلى ميدان حقيقي للمعارك السياسية والأخلاقية، ميدانا تغلب فيه المصلحة الدنيا (مصالح الشخص المادي) على المصلحة العليا (مصالح الكل الدعوي)، وتغلب فيه الأهواء والمطامع على الغايات والأهداف.

و من نتائجه أيضا، انفكاك الرابطة الربانية المتينة التي كان بها أبناء العمل الحركي معتصمون، وانحلال الوحدة الأخوية الصادقة التي كانوا بها متماسكون، لتشكّل مكان الأولى رابطة تنظيمية هشة هي إلى الانفكاك أقرب، وتشكّل مكان الثانية وحدة إدارية جامدة هي للانقسام أقرب. كما لا ننسى حالات التنافر والتباغض التي أصبح يعيشها أبناء الهوية الحركية الواحدة، فأفة التسييس وإن كانت السبب في زرع الاختلاف والتنازع بين أبناء العمل الحركي لتنقسم الهوية الحركية الواحدة إلى هويات حركية متعددة، فقد كانت السبب في زرع الاختلاف والتخصص بين أبناء الهوية الحركية الواحدة لتنقسم هي الأخرى على ذاتها، وتصبح شبه هويات حركية متلاعنة.

بهذا نكون قد انهمنا الكلام في الآفة الثانية آفة التسييس، والتي إن نحن أردنا أن نصفها بما يليق بها من الأوصاف نقول أن آفة التسييس هي أم المصائب (الآفات) في العمل الحركي.